قسم التاريخ –السنة الرابعة –تاريخ أمريكا
المحاضرة الثانية
الكشوف الجغرافية الاستعمارية الأوروبية

أولاً– كشف أمريكا قبل كولومبوس :

ثمة عناصر وأحداث شتى في تاريخ وأساطير العالم القديم تلقي بظلالها على شهرة كولومبوس الاكتشافية. وبما أنه وجد الكثير من التناقضات في تاريخ حضارة أمريكا واكتشفت آثار لزوار من العصر القديم في أمريكا ما قبل كولومبوس فإن علم الأمريكيات مازال منشغلاً بالنقاش الآخذ مجراه بحدّة للإجابة عن السؤال متعدد المناحي العلمية: هل الثقافة الأمريكية نابعة من ذاتها أم إنها متأثرة بالأغراب. في هذا النزاع يقف المدافعون والخصوم من بعضهم البعض في حالة لا تقبل المهادنة قلّ ذلك أم كثر. فالمدافعون يعتمدون دائماً وباستمرار على الهجرات عبر طريق البيرنغ وعلى التقارب عندما يضطرون لإيجاد شرح المتطابقات الواضحة والكثيرة بين العالم القديم والجديد. ونظرة التقارب تشتق الحلول ذاتها في المواقف الحياتية الإنسانية المعنية ومن نفس الطبيعة الفكرية. وعلى النقيض من ذلك يعرض الخصوم التنويه إلى طريق البيرنغ بصورة نسبية، لأن هذا لا أهمية له إلاَّ في عصر ما قبل التاريخ، بينما تشير المتوازيات التي جرت عبر الأطلسي إلى اتصالات تمت في العصر الحديث. ولا يعتبر هذا الرأي جديداً. فبعيد الاكتشاف أو بالأحرى الغزو الذي قام به الإسبان أبدى الأوروبيين استغرابهم عن وجود أفارقة سود في أمريكا مما قوى الاعتقاد بأن كولومبوس لم يكن أول زائر لأمريكا في العصر القديم. وفي غضون ذلك أصبح جزءاً معروفاً من التاريخ الأمريكي القديم بحيث يمكن اليوم إثبات نظرية عبور الأطلسي قبل كولومبوس في مجالات كثيرة.

يوجد عدة نظريات معاصرة تعالج مسألة بلوغ القارة الأمريكية وهي تؤكد أن حضارات مختلفة تحدثت وأشارت إلى القارة الأمريكية بشكل أو بآخر. وقد نجد أن الهجرة إلى القارة لم تتم عبر مضيق بيرينغ، وهي نقطة العبور التي تربط أمريكا الشمالية بآسيا من جهة القطب الشمالي. فقد أكدت الأبحاث التي قامت بها عالمة الآثار البريطانية **نيد غيدون** أن الشعوب القديمة وصلت إلى أمريكا من عدة جهات عبر البحر، خاصة وأنها كانت تعرف قوانين الملاحة اللازمة وتمتلك القوارب الكفيلة بالوصول إلى هناك.

كان الإغريق السباقون في هذا المجال لكثافة كتاباتهم وما تبقى من هذه الكتابات التي شكّلت ميراثاً مهماً لحضارات الشعوب الأخرى. فقد كتب أفلاطون "***حوار طيماوس***" سنة ٣٨٠ ق.م. وذكر أن جده كريتياس حظي بمخطوط للمشرّع الكبير صولون، دونت فيه أخبار هامة عن تاريخ وجغرافية بلدان عديدة، فيقول كريتياس: أن العلماء المصريين أوضحوا له موقع وتاريخ أطلنطا التي غرقت نهائياً في المحيط الأطلسي بعد أن قوض أركانها زلزال قوي. ويتكلم أيضاً عن وجود جزر الأنتيل في الأطلسي وأراض واسعة الأرجاء بعيداً جداً ما وراءه. وهذه الأرض الثابتة هي قارة حقيقية. ومنذ تلك الأيام سمّي البحر الكبير الممتد حول أوروبا وإفريقية بالمحيط الأطلسي.

هناك حضارات قديمة وعريقة أخرى تحدثت عن الوصول إلى القارة الأمريكية، ولا يمكن أن نغفل الحضارة الفرعونية طبعاً لما وصلت إليه في مجالات الملاحة وعلوم متقدمة جداً في ذلك العصر، وهي حضارة دامت أكثر من خمسة آلاف سنة. وهناك عدة دراسات واجتهادات تتحدث عن وجود آثار الحضارة الفرعونية ومعالمها بأشكال مختلفة في القارة الأمريكية.

يمكن أن نتحدث عن الجانب اللغوي في وسط القارة على وجه الخصوص حيث دوّن كتاب المايا المقدس "**البو بول بو**" برسوم وصور تحاكي تلك المعتمدة في اللوحات الفرعونية القديمة، كما يمكن أن نجري مقاربة بين المفاهيم الهندية القديمة والمفاهيم الفرعونية، ولا نتحدث هنا عن مقاربة دقيقة بل عن بعض التشابه بين الحضارتين من حيث المفاهيم القديمة (الغيبيات، العالم الآخر، والبنية الاجتماعية، وألوهية الملك والحاكم، ...إلخ).

كما نستطيع التحدث عن المباني الهائلة التي كانت تقام في أمريكا في بعض المناطق منها، تحديداً في مناطق أمريكا الوسطى والمكسيك. المباني الهائلة المشابهة للأهرامات وهي تسمى أيضاً بأهرامات بالرغم من اختلافات نسبية في هيكلها واستعمالها. يوحي هذا كله إلى احتمالات وصول الفراعنة إلى هناك.

أما الفينيقيون فقد استطاعوا تأسيس عدد من المدن الساحلية الاستعمارية (مثل ممفيس وقبرص وأوتسيكا في شمال إفريقية)، كما استطاعوا تأسيس قادش في القرن الثاني عشر قبل الميلاد والتي تميزت بوقوعها في ممر جبل طارق مما يدلّ على تجرأ الفينيقيين على التوجه نحو الأطلسي.

ومن المعروف أن قرطاجة كانت تعتبر أهم مدينة مستعمرة فينيقية، والتي كانت مهيأة من خلال موقعها المركزي على ساحل شمال إفريقية لتتبوأ مركز مهيمن ضمن مدن المتوسط التجارية. وبعد أن تأسست قرطاجة كابنة لمدينة صور ارتبطت أولاً ولعدة قرون بعلاقة صلة مع المدينة الأم المشرقية. غير أن هذا الوضع تبدل في القرن السادس قبل الميلاد، عندما تمكنت قرطاجة من انتزاع السيطرة بسبب تغيّر الأوضاع السياسية في الساحل الشرقي نتيجة الغزو البابلي للمدن الفينيقية وفرض الحصار على عاصمتهم صور، وتمكن الفينيقيون من الهروب من المدن المحاصرة باتجاه جزر الغرب النائية عن طريق قرطاجة. ولكن القرطاجيين حاولوا منع سكان المدينة الأم المهمومة من تأسيس مستعمرة في الغرب النائي. وعلى هذا الأساس ولتأكيد المنع هذا وفي أن واحد لإقامة حاجز تجاه هروب اللاجئين الفينيقيين أغلقت قرطاجة في عام ٥٤٠ قبل الميلاد، ممر جبل طارق تجاه كل السفن الأجنبية. وهكذا ظلَّ هدف الهروب "**الجزر النائية**" مفتوحاً أمام القرطاجيين لسنوات عدة.

ونتيجة للتفوق البحري الفينيقي فقد كلفهم الفرعون المصري نيشو عام ٦٠ قبل الميلاد بالإبحار في أسطول من السفن للالتفاف حول القارة الإفريقية منطلقين من البحر الأحمر عبر ممر جبل طارق وأن يعودوا بأسرع ما يمكن إلى مصر ثانية. وكما يذكر هيرودوت احتاج الفينيقيون لهذه الرحلة سنتين كاملتين. لأنهم قطعوا رحلتهم عدة مرات، لكي يزرعوا القمح على شواطئ إفريقية وبهذا يكون القمح زادهم في الرحلة التالية. وقد اقتبس هيرودوت جزء كبير من التفاصيل التي ذكرها حول هذه الرحلة من كتاب "**أسفار فينيقي**" وعلى الرغم من عدم قناعته بما كتب في هذا الكتاب فقد اقتبس منه ما يلي: "**عندما أبحرت السفينة حول الرأس الجنوبي لإفريقية رأينا الشمس ظهراً على ناحية اليمين**". ولم يكن بمقدور هيرودوت كإنسان يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية أن يتصور بأن الشمس تقف في نصف الكرة الجنوبي، أي في رأس إفريقية الجنوبي، وأنه عند الإبحار باتجاه مسار الشرق–الغربي تبدو الشمس فعلاً من موقع قيادة السفينة كما لو أنها يجب أن تسطع غرباً.

بعد بضعة عقود تمكَّن القاضي القرطاجي هانو من الإبحار حول إفريقيا في الاتجاه المعاكس. لقد شرع برحلة بستين مجدافاً لكي يؤسس على طول الساحل الغربي لإفريقية مستعمرات جديدة للفينيقيين. وحافظت آثار هؤلاء المستوطنين الفينيقيين على نفسها في الشاطئ الإفريقي الغربي مدة أطول من سلطة الفينيقيين على الساحل الشرقي. وفي القرن الأول ذكر المؤرخ

الإغريقي **سترابون** أن اللغة الفينيقية كان يتم التحدث بها في الشاطئ الغربي الإفريقي على الرغم من أن السكان هناك كانوا من الأفارقة السود. وكان الفينيقيون أنفسهم قد هربوا قبل مدة طويلة لكي يستقروا باتجاه الغرب إلى الجزر النائية، في رحلة استغرقت ثلاثين يوماً من الإبحار. هذا ما يدلي به سترابون الذي يقتبس من الأفارقة أقوالهم الدالّة على منطقة نائية تقع في الغرب التي لم يعرفوا عنها شيئاً سوى الأحاديث.

ويتفق هذا الوصف مع ما أورده أرسطو في كتاب "**المنطقة المجهولة**"حيث يتحدث عن مدن فردوسية الجمال، بغاباتها وأثمارها تقع في الغرب البعيد، أنهارها صالحة لاستخدام السفن، فيها جبال عالية. ولم يكن يُعرف عن أرسطو أنه خيالي، لهذا يمكن القول إن أرسطو كان يعكس في وصفه الواقع العلمي الدقيق لعصره. ثم إنه ليس من الضروري التمسك بتعبير جزيرة يمكن للمرء أن يتصوَّر كيف أن بحّاراً يرى من بعيد عند الأفق أرضاً مجهولة، فمن غير المعقول أن يعتقد بأن ما رآه يمكن أن يكون قارة، بل يخطر له أقرب شيء إلى ذهنه "**الجزيرة**".

ويشير المؤرخ ديودروس سيكولوس بأن الفينيقيين"**أخبروا كل العالم عن هذه الجزر بعد أن تعرفوا على جمال وخصوبة البلاد المجهولة**".

وحول هذه الجزر يكتب تيوبومبوس أحد أشهر مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد، عن "**وجود جزر عظيمة ما وراء العالم المعروف في مكان ما في الأطلسي**". ويذكر كلاديوس في القرن الثاني الميلادي عن جزر لها علاقة مع قادش الميناء المثالي للانطلاق إلى هذا الهدف الثاني.

ثم إنَّ منستوس آفينيو أحد أهم المؤرخين في القرن الرابع الميلادي يتحدث عن رحلة بحرية استغرقت أربعة أشهر قام بها الأدميرال ميلكو وصل بعدها إلى جزر سورلينجا غير المحددة جغرافياً.

ومن استعراضنا لهذه النصوص القديمة نجد أن بحارة العصر القديم لم يستطيعوا عبور الأطلسي فحسب، بل إنهم بالفعل أنجزوا ذلك. والدليل الأكبر على ذلك:

كان بحارة العصر القديم يخشون "**بحر الظلمات**" البحر المرعب ذي الأعشاب البحرية اللزجة التي تطفوا فوق الأمواج وتثبت السفن كأذرع التقاط. هذا الوصف ينقله إلينا العلماء

المعاصرون للبحارة الأوائل، فهل هذا مجدداً أحد التخيلات التي لا تصدق ولا يعوَّل عليها والتي نتَّهم بها أسلافنا؟ كلا، مثل هذا البحر موجود في الواقع، إنه موجود في الأطلسي إلى الجنوب من جزر برمودا ويحمل اسم "**بحر سارجاسو**" نسبة لنوع "سارجاسوم باسيغيروم".

وكان بحر سارجاسو يعتبر على الدوام كابوساً ثقيلاً لكل البحّارة. فعدا عن أعشاب البحر المعوقة لا بل الخطرة بالنسبة لبعض أنواع السفن، كانت هناك فترات محددة تسكن فيها الريح، مما حدا بالبحارة لتجنب هذه المنطقة قدر المستطاع. ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك دائماً. يذكر كولومبوس هذا في كتاب يومياته مؤكداً الرعب الذي سببه بحر سارجاسو لفريق بحارته.

وتدلّ معرفة بحّارة العصر القديم ببحر سارجاسو إلى أي مدى توغلوا باتجاه الغرب: هو موجود، حسبما يراه بحار متوسطي، أمام أمريكا مباشرة. ولو أنَّ سفينة من العصر القديم منطلقة من البحر المتوسط وصلت لأول مرة إلى بحر سارجاسو لما تبقى إلا مسافة قصيرة تقطعها للوصول إلى تلك الشواطئ التي توجه إليها كولومبوس بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام.

أصبح من المسلم به الآن أن كولومبس لم يكن بالفعل أول أوروبي وطأت قدماه أرض العالم الجديد ، ولكن عديداً غيره كانوا قد سبقوه ووصلوا شواطئ أمريكا في ظروف غامضة مما جعل آثارهم شبه معدومة وجعل أخبار رحلاتهم أشبه بالأساطير منها بالواقع التاريخي . فهناك دلائل كثيرة على أن أهل الشمال الأوروبي والملقبون بالفايكنج، أولئك البحارة المهرة من أسكندنيفيا ، كانوا قد اكتشفوا أيسلندا وجرينلند ولبرادور قبل عام ١٠٠٠ م. وفي تلك السنة كان البحار ليف أركسون وقد اكتشف ما أسماه هو فنلندا – ويمكن أن تكون هي نيوإنجلند الحالية – وقد أنشأ مستعمر عليها ولكنها لم تدم طويلا . وكان الباسكويز يقومون برحلات بعيدة للصيد في المحيط الأطلسي، وتوجد هناك كثير من الأقاويل والحكايات عن غير هؤلاء من البحارة الذين زاروا أرضا بعيدة جدا إلى الغرب .

ثانياً – الكشوف الجغرافية الأوروبية

١ – دوافع الكشوف الجغرافية

يتفق مؤرخو العصر الحديث على القول بأن اكتشاف أمريكا إنما كان نتيجة حتمية لتوسع الحضارة الأوروبية في أواخر العصور الوسطى. لقد مثلت تلك الفترة في نظرهم تصاعدا مستمرا في سلطة أوروبا التجارية والسياسة، وكان هذا الاكتشاف أهم حدث في ذلك التصاعد. وإن هذا

التوسع الأوروبي قد جعل الوقت ناضجا لاكتشاف كريستوفر كولومبوس ، ولو لم يكن كولومبوس قد قام بهذا العمل، لكان بالإمكان أن يقوم به شخص آخر. ومن ثم فحتى يمكن فهم حدث اكتشاف أمريكا، فإنه لا بد من استعراض الخلفية التاريخية له في أوروبا، ومن خلال ذلك فإننا سنرى بأن هذا الاكتشاف لم يكن عملية منعزلة بنفسها – وأهم عملية في ذلك – ولكنه كان خطوة في طريق التوسع الأوروبي ككل. لقد كان الإسبانيون أول من قدم الحضارة الأوروبية إلى العالم الجديد ، وتلاهم في ذلك البرتغاليون ثم الفرنسيون ثم البريطانيون .

بينما كان الوجه الشرقي للعالم المسيحي، الذي اجتاحته جحافل الأتراك، مهدداً بالانهيار، كانت أوروبا بالمقابل، في الغرب، تفيض نشاطاً وحيوية. وقبل أن يصل القرن الخامس عشر إلى نهايته، كانت الضرورة تدعو البحارة والتجار إلى عبور الأطلسي والدوران حول إفريقية. آنذاك بدأ عهد الاكتشافات الكبرى، أي عهد المغامرة التي لا يذكرها اليوم الأوربيين إلا ويشعرون بنوع من العزة والافتخار.

مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع جذور، أو على الأقل بذور، الاستعمار المعاصر مباشرة. فقد ولد الاستعمار الحديث من حجر الكشوف الجغرافية ولا نقول في رحمها. ففي أواخر القرن الخامس عشر خرجت أوروبا تضرب في المجهول، فعادت تحمل إلى العالم عالماً جديداً بل عوالم جديدة. من الصعب علينا في القرن الواحد والعشرين أن نقدر حقاً مدى ضخامة ووقع الهزة التي أحدثها هذا الكشف في وقت كانت رقعة المعمورة المعروفة(بالنسبة لأوروبا) محدودة ثابتة لا تكاد تتغير، ثم فجأة وفي عالم متمدد بأقصى سرعة تضاعف العالم عدة مرات. وربما لا يعدل تلك الطفرة في عالم الإنسان شيء من قبل إلا كشف الزراعة.

وقد قلبت الكشوف الجغرافية إستراتيجية العالم القديم من صميمها:

فأولاً: مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرته التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه وانتقل من عروضه المألوفة إلى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جداً. ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لا متناه، وبعد أن كان محلياً أو إقليمياً أصبح عالمياً تماماً.

ثانياً: بعد أن كانت السياسة والإستراتيجية تتحرك في عالم مسطح أفقي أو إقليدي (نسبة إلى إقليدس) بكل معنى الكلمة، أصبحت تتفاعل في وسط كروي مجسم. ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب، بل وخلف وأمام أيضاً. وبلا شك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط، فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين، أما بعدها فقد أصبح العالم يتألف من محيط واحد ويلبس متعدد. ولم يكن من بدٍّ من أن يؤدي ذلك إلى اهتزاز العلاقات المكانية بين القارات والأقاليم والدول، فما كان منها بالأمس بؤراً مركزياً قد صار اليوم هامشياً متطرفاً وبالعكس.

ثالثاً : كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب بروز أهمية المحيط إلى الصدارة. فقد خرج العالم القديم إلى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية. فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة. فإذا بالبحر الأبيض المتوسط وبحر البلطيق يفقدان أهميتهما التاريخية. فتحول الأول إلى زقاقاً مغلقاً والثاني إلى بركة لصيد الأسماك، بينما يتحول المحيط الأطلسي إلى "البحر المتوسط" الجديد. ومع هذا الانقلاب تغير التوجه الجغرافي للقارات والأقاليم، فقلبت القارات رأساً على عقب تطلعاً إلى المحيط، وانحدرت قيمة دول وموانئ البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانئ غرب أوروبا.

رابعاً: ومن الناحية السياسية، أصبح الوقوع على المحيطات ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجني حصادها الثراء الفاحش، فبدأ عصر الإمبراطوريات البحرية العظمى، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تحاول الوصول إلى البحار والمحيطات، وبمعنى آخر اشتد الصراع بين البر والبحر.

ولكن السؤال المنطقي قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو: لماذا خرجت أوروبا الغربية في ذلك التاريخ بالذات ؟ والجواب أنه في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر بدأ التوجه الأوربي نحو الكشوف الجغرافية مدفوعاً بعدة عوامل يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

I – الدوافع الدينية:

لم تكن أسباب هذه المغامرة الطويلة المعقدة، أسباباً تافهة ولا بسيطة. ورغم كون فكرة الجهاد المقدس لم تجذب الكثير من الناس لملاقاة العثمانيين، إلا أنها بقيت ناشطة في إسبانيا كما في البرتغال. ففي عام ١٤٨٠، كانت إحدى الممالك الإسلامية لا تزال تسيطر على إسبانية. وبغية

تقليصها والقضاء عليها اضطر الملوك الكاثوليك إلى القتال طيلة عشر سنوات. وعندما غادر كولومبوس ساحل **بالوس** لم يكن قد مضى عشرة أشهر على سقوط غرناطة. أما دولة البرتغال، فإذا كانت قد استعادت استقلالها في وقت مبكر جداً، فإنها تابعت القتال ضد المسلمين، فيما وراء البحار. وقد أعطى مارتن الخامس وخلفاؤه على عرش القديس بطرس، لهذه الحملات تشريعاً أقره القانون الكنسي في الحروب المقدسة، وهو أن المحاربين يفيدون من الغفران المطلق.

على كل حال تتلخص الدوافع الدينية في متابعة أوروبا حربها الصليبية ضد المسلمين، على الرغم من أن تلك الحروب التي بدأتها إسبانيا (حرب الاسترداد) والحملات الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي، قد شارفت على نهايتها في ظاهرها، فإن الروح التي تولدت من ذلك الصراع الدموي العنيف كانت روحاً تزمتية انتقامية عند بعض الملوك والأمراء. وأرادوا مطاردة العرب المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم، وانتزاع ما يملكون من خيرات ومكاسب اقتصادية.

ولتحقيق ذلك فإنهم شرعوا يبحثون عن ذلك البلد المسيحي الواقع على طريق التوابل، والذي قيل لهم أنه قريب من أرض المسلمين ويحكمه القديس يوحنا الراعي، حتى يتحدوا معه في حربهم ضد الإسلام، ومن المحتمل أن يكون هذا البلد هو الحبشة.

ومن جهة أخرى رغبة الأوربيين كشف مناطق تبشيرية جديدة في إفريقية، وزيادة عدد المؤمنين بالمسيحية.

II – الدوافع الاقتصادية:

تعدّ العوامل الاقتصادية من أهم العوامل الدافعة، فقد كانت أوروبا في القرن الخامس تشكو من ندرة المعادن الثمينة لديها، ومن ثم قلة النقد المتداول، مما أعاق التجارة الأوربية، وخلق بلبلة في الأمور النقدية. ويرجع ذلك إلى نضوب مناجم الفضة في أوروبا، وانقطاع وصول الذهب من السودان عبر إفريقيا الشمالية إلا بكميات ضئيلة.

فرأت أوروبا أن تبحث عن تلك المعادن في إفريقيا، ومن ناحية أخرى، فإن أوروبا كانت بحاجة إلى التوابل التي تنتجها الدول الآسيوية والتي كانت تأتيها على سفن عربية، والتي كانت تصل إلى الموانئ العربية حيث يشتريها البنادقة ويقومون بتوزيعها قي أوروبا. وكان المماليك في سورية ومصر يتقاضون أثماناً عالية لها من البنادقة، مما يجعلهم، أي البنادقة، يبيعونها في أوروبا

بأسعار فادحة. وأمام هذا رأت أوروبا أن تصل إلى البلاد المنتجة للتوابل مباشرة، بالالتفاف حول إفريقيا، أو بالتوجه في المحيط الأطلسي غرباً ، وذلك لتحصل على حاجتها دون الوسيط العربي المملوكي، والاحتكار البندقي الذي عانى منه التجار والجنويين بشكل خاص.

لذا كان كل ملاَح جنوي مستاء من احتكار البندقية للتجارة في المتوسط، يحاول أن يستنبط طرقة لاختراق نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله. وظهرت عند ذاك شعوب جديدة هوت التجارة البحرية، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدي إلى الأسواق القديمة، وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة في وجوههم. فبدأ البرتغاليون مثلاً يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيط الأطلسي. وبذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى مقتل قرطاجة على يد الرومان.

III – الدوافع السياسية:

كانت أوروبا العصور الوسطى تعيش في عالم إقطاعي ممزق، عالم الفرسان والأقنان، والأمراء وعبيد الأرض. وكانت تتألف من عدد لا نهاية له من الوحدات المحلية والإقليمية الضيقة، سواء من دوقيات وباروניات الإقطاع أو دول المدن، الكل مزقته الحروب والصراعات الصغيرة. ولم يكن من الممكن لمثلها أن تخرج إلى ميدان الكشوف بهذا الهيكل السياسي الممزق، وفي إبان ذلك انهار الكيان السياسي للإمبراطورية التي عرفتها العصور الوسطى، لتحل محلها الدول القومية الآخذة بالنمو. فبالرغم من تمشي فكرة المملكة العامة التي تسندها الكنيسة العامة مع أماني أوروبا خلال عدة قرون. فإن هذه الفكرة لم تشكل تماماً لتتفق واحتياجات أوروبا. وبينما كانت السلطة المدنية تمضي قدماً في السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطيئة مضنية، وقد ظهرت في إنكلترا أولاً حيث كانت الظروف مواتيه لظهورها، ثم ظهرت في الدول المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي فرنسا وفي الإمارات الكبرى من الدول الألمانية. وما أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى توطدت دعائم الحكومات القومية في إنكلترا وفرنسا وإسبانيا.

تمكن العثمانيون بعد احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣، من بسط سيطرتهم على شرقي المتوسط، وإغلاق الطرق الموصلة إلى الشرق الأقصى وخيراته بوجه أوروبا، كما أن العثمانيين بتوسعهم في شرقي أوروبا، أصبحوا يشكلون خطراً على الكيانات السياسية الجديدة التي قامت في

أوروبا نتيجة نمو مفهوم الدولة القومية فيها في القرن الخامس عشر. وبناءاً على ذلك يمكن القول أن اندفاع أوروبا نحو المغامرات الاستكشافية كان لها هدفان:

١- تطويق القوة الإسلامية الجديدة الناهضة ممثلة بالدولة العثمانية وضربها من الخلف والقضاء عليها.
٢- تثبيت الوجود القومي للكيانات السياسية الناشئة ودعم اقتصادها وتحقيق نفوذها السياسي على أكبر رقعة من الممتلكات في أوروبا وخارجها.

IV- الدوافع القومية:

يعتبر القرن السادس عشر أول قرن اتضحت فيه معالم العصور الحديثة، ويقدم لنا أقوى تعارض لوجهة النظر الرومانية والكهنوتية التي سيطرت على العالم في العصور الوسطى، فقد استرد التفكير العلماني اعتباره، وكذلك بدأت دراسة جدّية ستؤدي إلى نمو العلم الحديث، وشغلت الجغرافية قسطاً مهماً من هذه المعرفة الجديدة. فقد كان احتلال البرتغاليين لسبته على الساحل الإفريقي عام ١٤١٥ بمثابة الحلقة الأولى في تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التي أدت إلى دوران فاسكو دي غاما حول إفريقية ١٤٩٢ وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، كما أدت إلى اكتشاف العالم الجديد فيما وراء المحيط الأطلسي على يد الملاح الجنوي كريستوفر كولومبوس. ومنذ ذلك الحين لم يعد البحر المتوسط مركز العالم المتمدن، فقد انتقل التفوق التجاري من المدن الإيطالية إلى الأمم القريبة من المحيط الأطلسي: البرتغال أولاً ثم إسبانية فالأراضي المنخفضة ففرنسا وإنكلترا، وترتب على ذلك أن انتقلت على السفن عابرات المحيط إلى أقصى الأرض تلك الحضارة التي نشأت في الشرق الأدنى القديم ثم انتشرت حول سواحل المتوسط ، وأخذت أوروبا تدخل مرحلة جديدة من تاريخها، وهي مرحلة تتميز بتأسيس المستعمرات والإمبراطوريات فيما وراء البحار وبالانتشار التدريجي للنفوذ الأوربي في شتى أنحاء المعمورة.

وفي إبان ذلك انهار الكيان السياسي للإمبراطورية التي عرفتها العصور الوسطى، لتحل محلها الدول القومية الآخذة بالنمو. فبالرغم من تمشي فكرة المملكة العامة التي تسندها الكنيسة العامة مع أماني أوروبا خلال عدة قرون. فإن هذه الفكرة لم تشكل تماماً لتتفق واحتياجات أوروبا. وبينما كانت السلطة المدنية تمضي قدماً في السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطيئة مضنية، وقد ظهرت في إنكلترا أولاً حيث كانت الظروف مواتيه لظهورها، ثم ظهرت في الدول المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي فرنسا وفي الإمارات الكبرى

من الدول الألمانية. وما أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى توطدت دعائم الحكومات القومية في إنكلترا وفرنسا وإسبانيا.

وكان ظهور الملكيات القومية في القارة إيذاناً بعصر من التنازع الدبلوماسي الحاد تحكمه فكرة التوازن الدولي. في حين زال ما كان يشعر فيه الأوربيون في العصور الوسطى من وجود مصلحة أوربية عامة، لم تستطع دولة واحدة أن تقدّر قوتها ومواردها الحقيقية. إلا أن الكشف عن العالم الجديد كان إيذاناً بانفجار حروب قاسية وانتشار القرصنة في أعلي البحار لعدة قرون. وأصبح المال أكثر توافراً في أواخر العصور الوسطى، ثم ازداد وفرة قبل أن ينتهي القرن السادس عشر حين تدفقت على أوروبا فضة البيرو. أما التجارة فقد نمت في كل الأقطار الغربية على أثر الدافع الأول الذي أنعشها أثناء الحرب الصليبية، وترتب على ذلك ظهور طبقة وسطى ذات نفوذ قوي ومصالح مادية تتعارض مع استمرار فوضى الإقطاع. وفرض رأس المال نفسه على الحياة العامة، وأصبح رأس المال قوة للدول القومية الناشئة، يشد من أزرها والتي اعتبرت سلطانها الوثيق مستمد من الحقائق الجديدة التي تميز أوروبا في القرن السادس عشر.

وكان ظهور الملكيات القومية من أهم الأسباب التي دفعت الدول القومية إلى الدخول في مضمار السباق الاستعماري، حيث إن بقاءها متفوقة على المسرح العالمي مرتبط بقدر ما تملكه من مستعمرات. وقد وجدت أن هناك شعوباً لم تطلها يد التقدم الإنساني (بحسب وجهة النظر الأوروبية)، وعلى الأقل تقدم العصور الوسطى.

V- الدوافع الفكرية والتقنية:

أخذت أوروبا منذ القرن الثالث عشر تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري، وبدأت تتحرر تدريجياً من المعتقدات الوهمية والخرافية، ولاسيما في ميدان المعرفة الكونية، فقد نسي الأوربيون خلال العصور الوسطى علم اليونان القائل بكروية الأرض، وسيطرت على فكرهم الخرافات حتى تخيلوا أن المحيط الأطلسي يكتنفه الظلام الدامس، وأن المياه في جنوبه تشتد حرارتها حتى تصل لدرجة الغليان ثم تسقط في هوة كبيرة.

إلا أن احتكاك أوروبا بالإنتاج الفكري العربي الإسلامي بدد تلك الجهالات، ولاسيما بما قدمه العرب في ميدان علم الفلك، والجغرافية، سواء أكان إنتاجاً ذاتيا كمؤلفات المقدسي وياقوت الحموي والبيروني، أو كان ترجمة للكتب اليونانية القديم الكبرى وأشهرها المجسطي لبطليموس.

وهكذا ارتد الأوروبيون إلى الأفكار القديمة عن كروية الأرض، وظهرت ملامح نهضة جغرافية، كانت العون الأكبر لحركة الكشوف الجغرافية في تقدمها. وقد ساعد هذه النهضة الجغرافية، بالإضافة إلى أخذ المعرفة العربية في هذا الميدان، ما قدمته البرتغال في شخص أميرها هنري الملاح للمعرفة الجغرافية من خدمات ومن أهمها إنشاء مركز للدراسات الجغرافية، ولرسم الخرائط، وإرسال بعثة بحرية كل عام إلى الجنوب كانت تعود وقد ازدادت معرفة بسواحل إفريقيا فتعمل على إنشاء تلك الخرائط المصورة. وقد عمد إلى ترجمة كتاب بطليموس عام ١٤٠٩ إلى اللغة اللاتينية.

وفي هذا المجال يجب ألا ننسى حركة الترجمة الواسعة التي ابتدأها عدد من المفكرين الأوروبيين، والجامعات، منذ القرن الثالث عشر، واستمرت خلال القرون التي تلت، وكانت تتوخى نقل أمهات الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وما ترجمه العرب من المؤلفات القديمة، وقد ساعد على انتشار الترجمة و الكتب المؤلفة حديثاً، اختراع الطباعة وانتشارها في معظم أنحاء أوروبا ولاسيما في إيطاليا، والبندقية منها بالذات.

وما كان بوسع الأوربيين الانطلاق في المحيطات، لولا التقدم الذي أحرزه علم الملاحة في القرن الخامس عشر، ولاسيما بعد اكتشاف السفن القشتالية الخفيفة والمرتفعة ، كما اكتشفت دفة القيادة المحورية، والتي ساعدت بقوة عملها على زيادة أبعاد السفن.

وفي الوقت نفسه، فإن تطور البوصلة والإسطرلاب العربي، أدى إلى تطور تقنيات الاتجاه مما ساعد على الابتعاد عن الشواطئ، وشق عباب البحار المجهولة.

٢ – الكشوف الجغرافية الإسبانية والبرتغالية الاستعمارية في جنوب ووسط القارة الأمريكية(ما يعرف باسم أمريكا اللاتينية):

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال البحث عن مستعمرات لها في طريق التجارة الهندية اتجهت إسبانية هي الأخرى إلى تدعيم مركزها السياسي الأوروبي بالكشوف والتوسع الخارجي، وقد توحد الإسبان والبرتغاليين في هدف واحد هو الوصول إلى جزر التوابل لكنهما تعاكسا في الاتجاه. فبينما اتجه البرتغاليون شرقاً، كان اتجاه إسبانيا إلى الغرب.

لم يكن الإسبانيون أقل رغبة من البرتغاليين في اكتشاف بلدان جديدة ، وفي التعرف على طرق جديدة للتجارة مع الشرق ، تحررهم من سيطرة تجار المدن الإيطالية من جهة ، والدولة العثمانية بأساطيلها القوية في شرق البحر المتوسط من جهة ثانية ، خصوصا مع الهند . غير أن أسبانيا كانت قد انشغلت طوال القرن الخامس عشر – تقريبا – في سلسلة طويلة من الحروب مع المسلمين للتخلص من آخر ما تبقى لهؤلاء من معاقل في شبه جزيرة ليبيريا – دولة غرناطة – ولم

يتم ذلك إلا في سنة ١٤٩٢م. وبعد ذلك أصبح في مقدور فردناند وزوجته إيزابيل الاهتمام بأمور الإبحار والتوسع .

وقد خرجت إسبانيا إلى الكشف والاستعمار بعد التوحيد مباشرة مغربة في الأطلسي ومن الطريف ذكره أن الكشوف الإسبانية التي أدت إلى كشف القارة الأمريكية قامت على أكتاف غير الإسبان في البداية، فقد تزعم حركة الكشف الإسبانية كولومبوس الجنوي، وماجلان البرتغالي

I- رحلات كريستوفر كولومبوس الأربع:

ولد كريستوفر كولومبس سنة ١٤٥١م في مدينة جنوا (إيطاليا) ، التي اشتهرت – آنئذ – بتقاليدها البحرية ، وبوجود أكبر مدرسة عالية للبحرية فيها ، في عائلة متواضعة. وقد عمل في صغره، حائكا كأبيه، ويقال بأنه – بعد ذلك – كان قد جاب في أنحاء البحر المتوسط مرات عديدة كتاجر. قصد كولومبس حوالي سنة ١٤٧٥ م إلى لشبونة التي سبقه إليها أخوه الأكبر الذي كان يعمل بها كرسام خرائط وبائع كتب. وقد تعرف بواسطة أخيه على الوسائط العاملة في البحر والمهتمة بصناعة السفن والدراسات الجغرافية والفلكية. وتزوج كذلك من فتاة برتغالية. ويقال بأنه كان ورث عن حميه – الذي كان من رجال حركة الاستعمار والتوسع البحري – مكتبة جغرافية ، أنعكف على دراسة ما فيها من مخطوطات وخرائط. تأثر كولومبس ، منذ سنة ١٤٨٠ م ، بالآراء المعروفة في أيامه والتي تقول بكروية الأرض، ولذلك فإنه كان قد اقتنع بإمكانية الوصول إلى الشرق – جزر الهند الشرقية –عن طريق الإبحار غربا عبر المحيط الأطلسي، وقد ترددت في عصره قصص البحارة الذين رأوا أرضا في أقصى الغرب من الأطلسي. ومن خلال حساباته فقد استنتج كولومبس بأن الذهاب إلى جزر الهند الشرقية ربما يكون أقصر عن طريق الغرب. وقد حاول ، منذ سنة ١٤٨٦ م، الحصول على معونة مالية من ملك البرتغال للقيام بهذا العمل، ولكن طلبه رفض، ليس فقط من قبل هذا الملك؛ بل من قبل هنري السابع ملك إنجلترا في ذلك الوقت أيضا ، حيث رفضه نظرا لارتفاع تكاليفه.

وبعد الكثير من المحاولات الفاشلة وجد أخيراً من يسمعه ويمد له يد العون وهي الملكة إيزابيلا ملكة إسبانيا الطامعة لملء الخزائن الإسبانية الفارغة بعد حروب الاضطهاد المريرة ضد العرب المسلمين، وطمعاً بالوعد الذي قطعه كولومبوس للبلاط عن رغبته في الإبحار إلى "***مناطق***

يستخرج الذهب من أرضها كما يستخرج الحديد دون الحاجة إلى شرائه بالمال". وطبقاً للأسطورة الشهيرة فقد قامت الملكة إيزابيلا برهن مجوهراتها، لكي تنفق على هذه الحملة الجريئة.

وبعد الحصول على موافقة الملكة الإسبانية ومباركة زوجها الملك فرديناند اللذين منحاه لقب نائب للملك على الأراضي المكتشفة، وزوداه أيضاً بثلاثة سفن صغيرة (سانتا ماريا ، نينا ، بنتا Santa Maria, Nina، Pinta) ، بدأ البحار الجنوي حملة استكشافية بحرية إلى المحيط الأطلسي انطلقت من ميناء بالوس في الثالث من آب عام ١٤٩٢ حاملاً معه تسعين ملاحاً، متوجهاً نحو الغرب قاصداً الهند دون أن يعرف أن هناك قارة لابد من اجتيازها قبل الوصول إلى آسيا.

سار كولومبوس وبعثته وسفنه في المحيط مدة شهرين وتسعة أيام لاقى الجميع فيها الأّمرين قيل أن يصل إلى الأرض، تلك الأرض التي تعرف بجزر الباهاما والتي أطلق عليها اسم **سان سلفادور**، معتقداً أنه وصل جزر الهند الشرقية(جزر الأرخبيل الياباني على شاطئ آسيا الشرقية)، ولذلك فقد أطلق على سكانها الأصليين اسم (الهنود Indiens) على الرغم من أنه لم يجد أثراً للتوابل، ومن الباهاما توجه إلى شاطئ كوبا الشمالية وجزيرة هاييتي التي أسماها بإسبانيا الصغيرة. ولقد ترك كولومبس معسكرا في هايتي – أرض جمهورية هايتي الحالية – حيث كان هذا أول مؤسسة أوروبية في العالم الجديد (اكتشف كولومبس عند رجوعه في رحلة ثانية بأن الهنود قتلوا جميع الرجال فيه) . وفي منتصف آذار سنة ١٤٩٣ م ، عاد كولومبس إلى إسبانيا من حيث انطلق ، حاملاً معه نماذج من النباتات غير معروفة في أوروبا كالبطاطا والتبغ والذرة والقطن، بالإضافة إلى كميات من الفضة والذهب اللذين جاء من أجلهما، كما حمل معه مجموعة من السكان الأصليين.

وكان من نتائج رحلة كولومبوس الأولى أن طلبت إيزابيلا وفرديناند ملكا إسبانيا من البابا الكسندر السادس إصدار مرسوم يخول للأسبان فيه حق السيادة على كل الأراضي التي يكتشفونها كما يمنع البرتغاليين من منافستهم في تلك الجهات. وبالفعل فقد أصدر البابا في ٢ أيار ١٥٩٣ مرسوماً أقر فيه أن كل الأراضي التي تكتشف إلى الغرب من خط يقع على بعد ٣٠٠ ميل من منطقة الرأس الأخضر والممتد من القطبين تصبح ملكاً لإسبانيا، بينما الأراضي الجديدة التي تكتشف إلى الشرق من هذا الخط تؤول إلى البرتغال.ولما كان هذا الخط يعوق جهود البرتغال في الكشف في المحيط الأطلسي، فقد اعترضت بشدة على المرسوم البابوي مما أدى إلى دخول

البرتغال وإسبانيا بوساطة البابا انتهت بتوقيع معاهدة **توردوسيلاس** في ٧ حزيران ١٥٩٤، وسّعت الخط الوهمي إلى ٣١٠ كم غرب جزر الرأس الأخضر. وقد قوبلت هذه المعاهدة بنقد شديد من قِبل بقية الدول الأوروبية لأنه جعل اكتشاف الأقاليم حكراً على اسبانيا والبرتغال دون أن تأخذ بعين الاعتبار مصالح بقية الدول الأوروبية كإنكلترا وفرنسا وهولندا.

وقام كولومبس برحلته الثانية في ٢٥ أيلول ١٤٩٤، وفي هذه الرحلة اصطحب معه من إسبانيا كثيراً من الرجال والحيوانات المختلفة والبذور، وذلك رغبة منه في تأسيس أول مستعمرة إسبانية في جزيرة هاييتي. وقد اتخذت هذه الرحلة طريقاً يقع إلى الجنوب من طريق الرحلة الأولى حيث اكتشف جزر الدومينيك وعدد كبير من الجزر الأخرى مثل سانتا كروزا و سانتا أورسولا و لا ريدوندا ، وسانتا ماريا، كما مر على جزيرة بورتيريكو، وعندما وصل إلى وصل إلى اسبانيولا(جزيرة هاييتي) قام بتأسيس بلدة إيزابيلا بمساعدة ١٣١٠ من الإسبان. وتعتبر هذه المدينة أولى المدن التي شيدت في العالم الجديد. وقد دمرت أثناء الحرب مع السكان الأصليين بعد ذلك.

وبعد ذلك أبحر إلى الساحل الجنوبي ومن ثم إلى جامايكا حيث اكتشف ساحلها الشمالي ثم عاد ثانياً لإتمام اكتشاف بقية الساحل الجنوبي لكوبا وللتأكد من أنها جزءاً من القارة الآسيوية؛ وتبع ذلك ذهابه إلى مدينة إيزابيلا ثم رحيله إلى إسبانيا، بعد أن عين أخاه بارثلومي كولومبوس حاكماً على المستعمرات الجديدة، حاملاً معه كميات من الذهب وبعض أنواع الطيور والفاكهة والنباتات الجديدة التي على رأسها الذرة، كما حمل معه عدد كبير من السكان الأصليين للبلاد بعد أن حولهم إلى عبيد . وبعد غياب دام قرابة الثلاث سنوات وصل كولومبوس أخيراً إلى إسبانيا وحط رحاله في ميناء قادش في ١١ حزيران من عام ١٤٩٥.

وبعد ثلاثة سنوات قام كولومبوس بتجهيز أسطوله لرحلة جديدة، وفي ٣٠ أيار١٤٩٨ غادر كولومبوس ميناء قادش مع ستة مراكب وأكثر من ٦٠٠ بحار. وفي هذه الرحلة اتجه إلى الرأس الأخضر بغية متابعة سيره غرباً. وبعد سنتين من الإبحار وصل إلى جزيرة ترينيداد وعند مغادرته هذه الجزيرة وفي طريق عودته على طول ساحل فنزويلا شاهد كميات هائلة من المياه تندفع من خليج **أورنيوكيو** فكتب إلى الملك الإسباني يقول:"***بأنه مقتنع بأن هذه الأرض كبيرة جداً تشبه في اتساعها قارة جديدة***" ، وخلال هذه الفترة نجحت جهود الحاقدين عليه في البلاط الإسباني في تصويره بمظهر المكتشف الأَّفاق الذي أضاع أموال إسبانيا في رحلات لم تستفد منها الدولة إلا قليلاً، ولم تتوصل بعد إلى مركز تجارة التوابل التي يحلم بها الجميع. وكان من جراء ذلك أن

وجهت له تهمة خيانة البلاط الإسباني وتم استدعاءه إلى **سانتو دومينيغو** ليحقق معه ومع ثلاث من إخوته القاضي **فرانسيسكو بوديديا** ممثل الملك الإسباني، حيث تم إرساله وإخوته مكبلين بالأغلال إلى إسبانيا حيث بقي أكثر من ١٨ شهر يدافع عن رحلاته وكشوفه، وأخيراً صدر العفو عنه وتم تعيينه نائباً للملك في المستعمرات الجديدة.

وفي رحلته الرابعة والأخيرة، انطلق كولومبوس يرافقه ١٤٠ بحاراً على متن ثلاثة سفن كبيرة ورابعة أصغر حجماً في ١١ أيار ١٥٠٢ من ميناء قادش الإسباني. واستمرت رحلته الأخيرة ما يقارب السنتين والشهرين شهد خلالها مصاعب كبيرة وفقد خلالها سفينتين من أسطوله وعدد كبير من الرجال وعاد أخيراً إلى إسبانيا في ٧ تشرين الثاني ١٥٠٤ دون أن تسفر رحلته عن كشوف عظيمة سوى التوصل إلى معرفة ساحل أمريكا الوسطى.

ومن سخرية الأقدار فإن كولومبوس الذي كرّم في حياته ومنح الكثير من التقدير توفي فقيراً معوزاً في ٢٠ أيار من عام ١٥٠٦ في بلد الوليد بإسبانيا، ولم يعرف أن الأراضي التي اكتشفها تنسب إلى نصف الكرة الغربي، والتي كانت في ذلك الوقت مجهولة بالنسبة لمعاصريه الأوروبيين.

وقد نتج عن رحلات كولومبوس عدة نتائج هامة من أبرزها:

- أثارت رحلاته موجة عارمة من روح المغامرة البحرية إلى حد كبير لدى البحارة البرتغاليين الذين داروا حول القارة الإفريقية ووصلوا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولدى غيرهم من الأوروبيين.
- بدا الملوك الكاثوليك يثبتون استعمارهم وملكيتهم على الأراضي المكتشفة جديداً.
- شجعت الإسبان أنفسهم على الاستمرار في عمليات الكشف الاستعماري والتوغل في القارة الجديدة في الجزء الجنوبي منها.

II- رحلة البحارة كابرال بيدرو أَلْفَاريز (152 – 1467) :

استمرت في حياة كولومبوس وبعدها الحملات الجدية للتمكن من كشف معالم هذا البر الجديد على الأوروبيين واحتلال المناطق الغنية منه. وكانت تركب السفن المبحرة نحو الغرب إذ ذاك أعداد كبيرة من البحارة وجماعات غير قليلة من رجال الدين المتعصبين المغامرين والمرتزقة واللصوص من الإسبان والبرتغاليين تبحث عن السلطة والذهب والمجد في بلاد بكر تدفعهم إليها

روح الحروب الصليبية التي عاشوها في أوروبا والمشرق. واكتشفت شواطئ جديدة في أمريكا منها عام ١٥٠٠ الشاطئ البرازيلي على يد البرتغالي كابرال بيدرو ألفاريز.

فقد أبحر كابرال بأسطوله المكون من ١٣ سفينة من بيليم قرب لشبونة في التاسع من آذار ١٥٠٠م واتجه نحو الهند، وخطط لاتِّباع المسار الذي أبحر صوبه **فاسكو دا جاما**. وقد أبحر الأسطول في اتجاه الجنوب الغربي ومرَّ بجزر الكناري والرأس الأخضر. أَملَ البحارة في هبوب رياح تحملهم حول رأس الرجاء الصالح في أقصى نقطة جنوبي القارة الإفريقية، ولكن قائد الرحلة أراد تجنب خليج غانا فحاد الأسطول عن مساره وانحرف نحو الجنوب الغربي.

وفي الثاني والعشرين من نيسان، رأى البحارة ما يُعرَف اليوم بالجنوب الشرقي من البرازيل. وقد أعلن كابرال المنطقة ممتلكات برتغالية. وتقع الأرض ضمن الأملاك البرتغالية كما حددتها معاهدة توردي–سيلاس عام ١٤٩٤م. فقد كابرال واحدة من السفن، وعادت سفينة أخرى إلى البرتغال لتنقل الأنباء عن رسو السفن. وبقيت السفن الأخرى في البرازيل لمدة ثمانية أيام ثم تابعت الرحلة إلى الهند.

وفي الرابع والعشرين من أيار، هبّت عاصفة وفرقّت الأسطول. وقد فقدت أربع سفن، لكن إحداها وصلت مدغشقر. أما السفن الست الأخرى فقد تلاقت في موزمبيق وتابعت إبحارها بمحاذاة الشاطئ الإفريقي شمالاً، واجتاز الأسطول المحيط الهندي ووصل إلى كلكتا بالهند في ١٣ أيلول. وهناك، قُتل عدد من بحارته في معركة مع مجموعة من التجار العرب. ثم أبحر أسطول كابرال إلى مدينتي كوشين وكانانور في الهند حيث حمّلت السفن بالبهارات.

وعاد الأسطول إلى لشبونة في ٢٣ تموز عام ١٥٠١م. وقد نظر الملك عمانويل الأول في تعيين كابرال قائدًا لرحلة كشفية أخرى إلى الهند، ولكنه اختار دا جاما بدلاً منه. وقد تقاعد كابرال بعد ذلك من الخدمة في البلاط الملكي.

بعد أن استطاع كابرال الوصول إلى شواطئ البرازيل، قرر الملك البرتغالي عمانويل الأول إرسال حملات كشفية لهذه البلاد الجديدة ووقع اختياره على الرحالة أمريكو فيسبوتشي.

III – رحلات البحارة الفلورنسي أمريكو فيسبوتشي:

قام هذا البحارة بعدة رحلات نحو الغرب مابين ١٤٩٧و ١٥٠٢ سار فيها بمحاذاة الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية دون أن يصل إلى نهايته. وتتيح كتابات فيسبوتشي المطولة والتفصيلية

تكوين فكرة قريبة عن الطريق الذي اتبعه: فبعد خروجهم من الرأس الأخضر، في إفريقية، أبحروا في عرض البحر ما ينوف عن الشهرين (محاطين بالعواصف في الأيام الأربع والأربعين الأخيرة) ووصلوا إلى الشواطئ الأطلسية قريباً من مدينة ريسيفي الحالية في البرازيل، وبعد إقامة قصيرة هناك، عادوا إلى البحر ثانية، ووصلوا أخيراً إلى قطب انتصاف النهار.

تأتي أهمية الرحلات التي قام بها هذا البحارة بنشره بعد عودته نبأ رحلاته بالكتابة عنها وعن الأشياء التي وجدها أثناء هذه الرحلات، حيث أعلن أن البلاد التي وصل إليها هي بلاد جديدة ليست الصين أو اليابان أو الهند وإنما هي أرض جديدة مختلفة عنها. وقد بعث إلى إسبانية برسالة في ١٠ آذار ١٥٠٣ يبشر بوجوده أمام قارة جديدة غير القارة الآسيوية. واستند في إعلانه على ملاحظته أبراج النجوم المجهولة وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي، حيث يسود الشتاء خلال شهور الصيف الأوروبي.

نشر في عام ١٥٠٤ التقرير الذي وضعه أمريكو عن البر الجديد في سان ديغو في الفوج، فبدأ اهتمام الأوروبيين بالبلاد الجديدة وطلب أمير اللورين ريني الثاني، مشجع الجغرافيين في ذلك الزمان، من عالم الجغرافية والرياضيات الألماني والدمولار بأن يضع خريطة مناسبة عن العالم الجديد لتضم إلى تقرير أمريكو مقترحاً تسمية البر الجديد فيها بأمريكا نسبة إلى أمريكو أول المتحدثين عنه.

وهكذا أطلق الجغرافيون وواضعو الخرائط اسم أمريكو فيسبوتشي على القارة المكتشفة، وصارت منذ ذلك الوقت تسمى بأمريكا نسبة إليه.

IV- ماجلان وأول دوران حول العالم:

حفلت حركة الكشوف الجغرافية الإسبانية في عهد شارل الأول، خليفة فرديناند وملك إسبانيا والإمبراطورية الجرمانية المقدسة، بتنفيذ أعظم مشروع جغرافي. وهو الدوران حول العالم بالانطلاق من نقطة في اتجاه واحد والوصول إليها. ويقترن هذا المشروع باسم ماجلان الذي رأى أنه يستطيع الوصول إلى جزر التوابل في الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبي لأمريكا لأن كشوفه لجزر جديدة على هذا الطريق سيجعل البرتغال في نفس الوقت تتخلى

عن ادعائها في ملكية هذه الجزر لأنها تقع فعلاً إلى الغرب من الخط الوهمي الذي حدده مرسوم البابا.

بعد أن فشل ماجلان في إقناع ملك البرتغال بمشروعه توجه إلى الملك الإسباني شارل الأول . ورحب الملك الإسباني بهذا المشروع وفي ٢٢ آذار ١٥١٨ وقّع شارل الأول العقد المبرم بين التاج الإسباني من جهة وبين ماجلان من ناحية أخرى. وكان من بين النقاط التي تم الاتفاق عليها إعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التي يكتشفها وجزيرتين إذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستاً.

أقلعت حملة ماجلان المؤلفة من خمسة سفن من ميناء سان لوكار، واتجهت في المحيط الأطلسي جنوباً ثم عرجت في اتجاه الجنوب الغربي وصولاً إلى شاطئ البرازيل عند ريو دي جانيرو ثم إلى مصب نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية ووصل إلى خط عرض ٥٢ درجة جنوباً. فاكتشف ممراً مائياً عميقاً محصوراً بين جبلين أطلق عليه فيما بعد اسم مضيق ماجلان.

وفي عام ١٥٢٠ دخلت السفن محيط كبير أطلق عليه ماجلان اسم المحيط الهادئ(الباسيفيكي) لأنه قليل الأعاصير. ووصلت بعدها السفن إلى جزر ماريانا والفيليبين (نسبة إلى الملك فيليب الثاني ولي عهد إسبانيا) التي اعتقدها ماجلان خطأ بأنها جزر التوابل. وفي الفيليبين اشتبك ماجلان مع الأهالي وقتل في الاشتباكات، ولكن أخذ رجاله المسمى **ديانكو** ترأس البحارة وسار بهم باتجاه رأس الرجاء الصالح وعبره وسار في المحيط الأطلسي حتى وصل إلى إسبانيا في المكان الذي خرجت منه الرحلة في أيلول ١٥٢٢. وكان من أهم نتائج هذه الرحلة:

- أثبتت رحلة ماجلان كروية الأرض لأنه دار حول الكرة الأرضية في ثلاثة سنوات.
- هدمت جميع النظريات الخاطئة والإشاعات والخرافات القائلة عن حجم الأرض وشكلها.
- برهنت على أن الأرض أكبر بكثير مما كان يعتقد كولومبوس وغيره من الرحالة.
- نبهت إلى أن هناك قارة بين أوروبا وآسيا، وأن هناك محيط مترامي الأطراف لم يكن معروفاً من قبل.
- عرفت حدود العالم الجديد من جنوبه إلى شماله.
- شجعت الكثير من الرحالة على القيام برحلات استكشافية جديدة.

٣ – الكشوف الجغرافية الفرنسية:

دخلت فرنسا ميدان الكشوف الجغرافية متأخرة بسبب حرصها على بناء إمبراطوريتها في أوروبا، ثم وجهت جهودها نحو كشف أمريكا الشمالية من اجل البحث عن طريق شمالي غربي يؤدي إلى المياه الآسيوية، فكانت رحلة **(فيرازانو)** الذي وصل إلى خليج نيويورك، وهبط على سواحل **بيوانجلند** وجزيرة **نيوفاندلاند** لكنه فشل في الوصول إلى الصين.

قام **كارتيه** برحلة إلى سواحل **نيوفاوندلاند** عام ١٥٣٤، وعبر مضيق بتل ووصل إلى ساحل شبه جزيرة لابرادور. والثانية عام ١٥٣٥ إلى حوض جاسبي حيث اكتشف مصب نهر سانت لورانس ثم اعتلى واديه ووصل إلى موقع مدينة كوبيك الحالية، وتقدم حتى وصل موقع مونتريال.

حاول الفرنسيون بين عامي ١٥٤١–١٥٤٢ احتلال كندا بحملة عسكرية مكونة من خمس سفن بقيادة **كارتيه** وصلت إلى مونتريال، لكنها فشلت بسبب مقاومة الهنود الحمر والبرد القارس، واضطر المستوطنون للعودة إلى فرنسا.

أقام الفرنسيون حصن كوليني في البرازيل، واستخدموا فلوريدا كقاعدة بحرية لمهاجمة السفن الإسبانية المحملة بذهب وفضة العالم الجديد. وفي عام ١٦٠٨ أسسوا مدينة كوبيك في كندا، وكانت أول مستعمرة أوروبية دائمة في فرنسا الجديدة. وفي عهد لويس الرابع عشر (١٦٤٣–١٧١٥)، عمّر الفرنسيون فرنسا الجديدة بعد أن زودوها بالموظفين والمستوطنين والأدوات الزراعية، ثم زاروا نهر الميسيسيبي وقلب أمريكا الشمالية. واستطاع **ألويز وماركت** اختراق البحيرات العظمى. وفي صيف عام ١٦٨٢ وصل **(دو لاسال)** إلى مصب نهر الميسيسيبي وسمى إقليم لويزيانا نسبة إلى لويس الرابع عشر، وامتدت المستعمرات الفرنسية من كندا إلى لويزيانا.

٤ – الكشوف الجغرافية الإنكليزية:

بدأت الكشوف الجغرافية الإنكليزية في عهد الملك هنري السابع عندما كلف الملاح الإيطالي **(كابوت)** وأبناءه الثلاثة بمهمة الكشف الجغرافي، حيث انطلق كابوت من بريستول في ٢ أيار ١٤٩٧، ووصل إلى **نيوفاندلاند** ثم عاد إلى **بريستول** في آب من العام نفسه. وفي عام

١٤٩٨ أبحر كابوت ثانية من بريستول إلى أيسلندة، ثم إلى غرينلاند، ومنها إلى الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، ووصل إلى نيوإنجلند جنوباً. وفي عام ١٥٠٩ قام ابنه **سبستيان** برحلة إلى سواحل لابرادور وعثر على مدخل خليج هدسون ووصل إلى خط عرض ٦٧ شمالاً.

شغل الإصلاح الديني الإنكليزي عن الكشف الجغرافي حتى عام ١٥٧٨ ما خلا رحلات **هوكنز** إلى البرازيل عام ١٥٣٠، وإلى ساحل غينيا من أجل الذهب والرقيق. وفي عام ١٥٧٨ منحت الملكة **إليزابيث** السير **جلبرت** امتيازاً تضمن احتلال وسكن جميع الأراضي البعيدة والوثنية التي لا يملكها مسيحي. وبدا رحلته عام ١٥٨٣ باتجاه الغرب، ووصل إلى نيوفاندلاند وبدأ باستعمارها، لكنه غرق في طريق العودة.

في عام ١٥٨٤ منحت الملكة إليزابيث السير رالي امتيازاً باستكشاف واستيطان المنطقة الساحلية الممتدة من نهر سانت لورانس شمالاً إلى فلوريدا جنوباً. فأرسل بين عامي ١٥٨٤-١٥٨٦ خمس رحلات إلى العالم الجديد انتهت بإقامة مستعمرة على جزيرة رونوك بفرجينيا، لكنها لم تستمر طويلاً بسبب صعوبة وصول الإمدادات ومقاومة الهنود الحمر للمستعمرين الأوروبيين.

في عام ١٦٠٦ تأسست شركة لندن وشركة بليموث، وتولت الشركتان تأسيس المستعمرات الإنكليزية على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية، وبسبب تعرض البيوريتان للاضطهاد بدأت الهجرة الكبرى بين عامي١٦٢٨-١٦٤٠ إلى هذه المنطقة، وأقاموا خمس مستعمرات سميت باسم مستعمرات نيو إنجلند، في حين استعمر اللورد بلتمور إقليم ميرلاند عام ١٦٣٤ بعيداً عن مضايقات البروتستانت. حتى عام ١٧٧٦ أقيمت على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية ثلاثة عشر مستعمرة إنكليزية بين **مين وجورجيا** يقطنها نحو مليونين من السكان تشكلت منها الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب الاستقلال وثورة جورج واشنطن ١٧٧٦-١٧٨٢.

٥ - الكشوف الجغرافية الهولندية:

بدأت الكشوف الجغرافية الهولندية عام ١٦٠٩ عندما قام الملاح هدسون بتكليف من شركة الهند الشرقية الهولندية باستكشاف ممر إلى آسيا، حيث وصل إلى خليج نيويورك ونهر هدسون الذي سمي باسمه.

وبعد رحلة هدسون أقام الهولنديون مركزاً تجارياً في جزيرة **مانهاتن** ومحطة تجارية لجمع الفراء في موقع ألباني وبسطوا نفوذهم على إقليم هدسون، ولم يحل عام ١٦٢٤ حتى كانت هولندا الجديدة مستعمرة حقيقية، ثم احتلها الانكليز عام ١٦٦٤ وأصبحت تسمى نيويورك.

٦ – الكشوف الجغرافية الروسية:

شاركت روسيا في الكشوف الجغرافية في عهد بطرس الأكبر عندما كلّف البحار الدانيماركي **(بيرينغ)** بالتحقق من صدق ما يشاع عن وجود ممر بحري يفصل بين روسيا وأمريكا الشمالية، حيث نجح بيرينغ في اكتشاف الممر وسمي باسمه.

ركز الروس اهتمامهم على شبه جزيرة آلاسكا، وأسسوا فيها مركزاً تجارياً، وأقاموا قلعة إلى الشمال من سان فرانسيسكو، واحتكروا لأنفسهم تجارة الجزء الشمالي من المحيط الهادي سنة ١٨٢١.

كانت خشية الأمريكيين من التوسع الروسي في الجزء الشمالي من القارة الأمريكية أحد الأسباب التي دفعت الرئيس مونرو إلى إصدار مبدأه المشهور **(مبدأ مونرو)**، وبقيت آلاسكا مركزاً إقليمياً روسياً حتى عام ١٨٤٧، حيث اشترتها الولايات المتحدة من الحكومة الروسية بمبلغ ٧،٢ مليون دولار.